

الثالث التاسع

طبيعة العقل

والآن فلنحاول أن نرسم صورة للعقل كما يراه أصحاب التحليل النفسى .

العقل ينقسم إلى جانب شعورى وجانب لاشعورى . أو كما نسميها باختصار
الشعور والاشعور .

والجانب الشعورى هو الجانب الذى نشعر به ، هو ذاتنا التى نتكلم عنها
عندما نقول "أنا" ، أريد وأنا أعمل وأنا أفكر أو هو ما يسمى اصطلاحا بالـ"أنا" (١) .
وأما الجانب اللاشعورى فهو يشمل مبدئيا النزعات الغريزية التى هى فى محاولة
دائمة للتعبير والوصول إلى الشعور كما ذكرنا . فالعقل اذن ينقسم إلى الذات وإلى
النزعات الغريزية ، والأولى وهى الذات شعورية فى مجموعها والثانية وهى النزعات
لاشعورية . وقد قلنا إن الذات أو "الأنا" شعورية فى مجموعها ولم نقل إنها
شعورية إطلاقا ، لأنها فى الواقع تحتوى على جزء لاشعورى هو الجزء الذى يقوم
بالكبت ، فالكبت عملية لاشعورية يقوم بها الجانب اللاشعورى من "الأنا" ،
وهو الرقيب .

والصورة الأولية للعقل هى صورة النزعات الغريزية التى يتكون مجموعها من الطاقة
الغريزية الأصلية التى يطلق على مجموعها اسم "الهى" (٢) وتلشأ "الأنا" من
"الهى" عن طريق الاصطدام بين هذه الأخيرة وبين العالم ، ثم تعمل "الأنا" ،
على كبت ما تبقى من "الهى" فيصبح لاشعوريا ، وهذا هو منشأ "الاشعور" ،
وتصبح "الأنا" هى المتصلة بالعالم الخارجى كما يبدو عن طريق الحواس .
وعلى ذلك فإننا تصير الواسطة التى يكيف بها الإنسان نزعاته طبقا لهذا الاتصال .

(١) Ego

(٢) Id ومعناها باللاتينية "هى"

والمبدأ الذي يسود "الهى" هو مبدأ اللذة^(١) فهى ترمى إلى الإشباع واللذة ، وبما أنه لا اتصال بينها وبين العالم الخارجى أو المجتمع ، فإن جريها وراء اللذة مطلق ، لا يقيد قيدا من وجهة نظر هذه النزعات ، أما الذات فتحاول أن تحل محل هذا المبدأ مبدأ "الواقعية" ^(٢) أى مبدأ الاعتراف بالعالم الخارجى "الواقعى" ومصراعاته ، وقصر تحقيق اللذة على ما لا يتعارض مع هذا العالم .

فادراك الواقع فى العالم الخارجى هو الذى يميز الأنا بينا الرغبة وطلب اللذة وحدها هى التى تحرك الهى .

ويمكن أن يقال إن الذات تمثل ما نسميه عادة العقل أو الحكمة ، بينما النزعات تمثل ما نسميه الشهوة .

وموقف "الأنا" من "الهى" كوقوف الراكب من الفرس ، يمسك بأعنته ويوجهه ويستخدم قوته فى الوجة التى يريد ، ويكبح جماحه إذا ثار . ولكن هناك فرق بين الحالتين ، فالراكب يستخدم قوته الذاتية فى توجيه الفرس ، أما "الأنا" فتشتق قوتها من قوة "الهى" ، كما أن نزوات الفرس شىء خارجى بالنسبة للفرس لا يحس إلا بانارها ، أما نزوات "الهى" فهى تبدو "للأنا" كأنها نزعاتها الخاصة ، وبذلك يكون الإنسان كما لو كانت "أناه" تكبح جماح شهواتها الخاصة ، ولكن الشهوات فى الواقع مشتقة من "الهى" ^(٣) .

"الأنا" تخشى على نفسها كما يخشى الراكب نزوات "الهى" ، لأن هذه النزوات قد تعرضها لأخطار لا حصر لها ، تأتى من المجتمع الذى لا يرضى عن تحقيق النزوات كما هى .

ويتضح ذلك إذا عرفنا أن المجتمع لا يقبل تحقيق شهوات الإنسان على إطلاقها ، وأنه قد حصن نفسه ضد إطلاقها بالقوانين والتقاليد والعادات

Pleasure Principle (١)

Reality Principle (٢)

Freud : The Ego and The Id, 1915, p.30 (٣)

والعرف والدوق . . . إلى آخر هذه المفهومات ، وأن النزعات ترمى إلى ما هو
ضد هذه القيود ، والأنا تخشى انتقام المجتمع فتكبت من نزعات الهى ما يتعارض
معه ولا تسمح إلا بما يتمشى معه ، ولكن هذا ليس كل شيء في تقسيم العقل ،
لأن هناك جانبا آخر منه على أعظم درجة من الأهمية . هذا الجانب هو جانب
لا شعورى أيضا يسمى "بالأنا العليا" أو "الضمير اللا شعورى" (١) ، فاحتكاك
الأنا بالبيئة أو عالم الحقيقة والواقع ، يردى إلى أن ينفرد منه بالتدريج جزء
يعتبر في الواقع ثورة على الذات ، فالذات باحتكاكها بالعالم الخارجى أو الحياة
الواقعية تكاسب وجهة نظر عملية ، وتترفق أحيانا في معاملة النزعات والرغبات
المكبوتة ، فهى كالحكومة الضعيفة ، كثيرا ما يكون ضعفها سببا في ظهور
حزب متطرف لا يرضى إلا باتخاذ الوسائل القاسية لمعالجة ما يظهر من المخالفات ،
كذلك حالة العقل فإن جانبا من "الأنا" ينفرد ويصبح لا شعوريا ، وهذا
الجانب ينتزع من الحياة الواقعية قوانينها وتقاليدها ، ويحوّلها إلى مثل عليا
يطلب "الأنا" بتحقيقها ، وهو يطبق هذه القوانين والتقاليد تطبيقا هو في منتهى
الصرامة والقسوة ، ولا يعرف التساهل ، وهو يطلب العقوبة على مجرد النية كما
يطلبها على العمل . وهو دائم الضغط على "الأنا" مطالبا إياها بأن تكون صارمة
في معاملة "الهى" .

ويفهم مما سبق أن "الأنا" العليا لا تعمل بنفسها وإنما تعمل عن طريق
"الأنا" . وتتكون "الأنا" العليا من الأنا عن طريق الأثر الذى تتركه علاقة
الأبوين بالطفل في "أناه" ، و"الأنا العليا" تمثل أهم ما وصل إليه الفرد والنوع
الانسانى من ناحية الحضارة والخلق . وهى تحمل محل الأبوين في توجيه "الأنا"
توجيها دائما ، فهى بديل داخلى من الأبوين يمتاز عنهما بأنه دائم ، وبأنه لا يعرف
التساهل ، ويعمل دائما ضد النزعات ، ولا يرضى عادة عن أى تساهل تبديه "الأنا"
نحوها .

وعند نشوء "الأنا العليا" يصبح واجب "الأنا" مزدوجا ، فهى لا تقتصر في سماحها
أو عدم سماحها للنزعات بالتعبير على سراءة العالم الخارجى ، بل تراعى أيضا

معارضة "الأنا العليا" ، وعلى ذلك تتضاعف القيود على النزعات ، قيود مشتقة من العالم الخارجى ، وأخرى أشد وأعنف مشتقة من "الأنا العليا" .

ومن الغريب أن التنازل عن الرغبات تحت ضغط العوامل الخارجية يكون دائما مقترنا بالألم ، أما التنازل عنها تحت ضغط الأنا العليا فيكون له أثر آخر ، فالألم الناتج عنه يقترن به شعور باللذة والسرور (١) ، شعور بالفخر الذى يقترن باتيان العظيم من الأعمال . وليس ذلك غريبا لأن "الأنا" العليا هى بديل الأبوين ، وكما نشعر بالسرور والفخر إذا تغلبنا على نزعاتنا لإرضاء الأبوين ، فنحن نشعر بنفس الشعور إذا فعلنا ذلك إرضاء للأنا العليا ، فالأنا ترمى فى الطفولة إلى الحصول على محبة الأبوين وتشعر باللذة لذلك بصرف النظر عما قد يكون هنالك من الألم الناتج عن قمع النزعات .

(وكذلك الأنا تشعر برضاء الأنا العليا شعورا مصحوبا بالراحة والرضاء ، أما إذا أغضبتها فإنها تشعر بغضبها شعورا يترجم إلى ما نسميه "تأنيب الضمير" . وعند ما تغلب "الأنا" على "الهى" تتنظر أن تنال جزاءها من "الأنا العليا" ، بأن تنال نصيبا أوفى من المحبة ، وهذا هو الذى يشعر "الأنا" بالفخر .

وكثيرا ماوجه الناقدون إلى التحليل النفسى أنه قد أغفل القيم العليا الخلقية والروحية . وهذا غير صحيح لأن التحليل النفسى قد نسب عملية الكبت إلى النزعات الخلقية "للأنا" . ثم إنه قد بين أهمية الأثر الخلقى للأبوين فى نشوء هذه الوحدة الخلقية الدائمة فى عقل الإنسان وهى "الأنا" العليا .

وينسب فرويد نشوء هذه الصفات فى "الأنا" العليا ، إلى أنها تكتسب بعض هذه الصفات من صلتها بتطور الإنسان فى مختلف العصور ، فتتجمع فيها مؤثرات الحضارة والرقى الخلقى على مر العصور ، وهذا هو ما يجعل لها القدرة على أن تحيل النزعات إلى أسمى وأعلى ما فى الإنسان .

وهكذا نرى أن العقل يحوى هذه الجوانب الثلاثة : الهى ، والأنا ، والأنا العليا ، أما الهى والأنا العليا فلا شعور به ، وأما الأنا فأغلبها شعورى .

وعلى الأنا أن تسلك طريقها بين مطالب البيئة أو الحياة الواقعية ، وبين مطالب "الهى" فإذا عاجلت الأمر علاجا وسطا ، فهى ممرضة لمخاسبة الثالث وهو "الأنا العليا" التى تشبه فى تصرفها القوة الشعورية التى نسميها بالضمير ، غير أنها تختلف عنها فى أنها لا شعورية وصارمة أشد الصرامة لا تعترف بالواقع ولا تعرف التساهل ، ومثلها العليا أكثر نظرية وتطرفا مما نتصوره عادة .

ولهذا قال فرويد : "إن الإنسان أحبط بكثير من الوجهة الأخلاقية مما يتصور (بالنسبة لنزاعته الغريزية) وهو فى الوقت نفسه أرق بكثير مما يتصور (بالنسبة لذاته العليا ومبادئها) " .

والحياة العقلية السليمة هى التى تسير فى توازن حكيم بين هذه المطالب والقوى المتناقضة . أما إذا تلبّثت إحدى هذه القوى بشكل واضح على الأخرى ، فإن سلوك الشخص يصبح متطرفا فى إرضاء هذه أو تلك ، أو متأرجحا بين هذه وتلك ، أو قلنا أشد القلق خوفا من تغلب هذه أو تلك عليه .

والقلق^(١) وما يصاحبه من خوف وغيره من مظاهر الصراع النفسى ، والاضطراب النفسى أو "العصاب"^(٢) هو مظهر للفشل فى إيجاد التوازن بين هذه القوى . فالشخص المصاب بالاضطراب شخص قد فشلت ذاته فى إيجاد التوازن بين هذه القوى ؛ فأصبحت حياته كدرة تعسة ، وأصبح قلقا غير مرتاح إلى حالته ولكنه متيقظ لها أشد التيقظ يحاول أن يوجد التوازن الذى فقده بمختلف الوسائل .

وقد يبلغ اختلال التوازن درجة خطيرة ، فيفقد القيادة كلية من الأنا ، ويصبح الشخص غير عالم بما فى حالته من شذوذ ، وهذا ما يسمى بالجنون أو الاضطراب العقلى أو "الذهان"^(٣) . والفرق الأساسى بين الاضطراب النفسى أو العصاب والاضطراب العقلى أو الجنون ، هو أن الشخص فى الأول عارف بحالته وساع فى إصلاحها بنفسه أو عن طريق العلاج ، وقادر على الحكم على تصرفاتها ومعرفة الخطأ والصواب فيها — أما فى الثانى فهو لا يرى فى نفسه شذوذا ، ويصبح فى حالة يفقد معها القدرة على الحكم على تصرفاته بالخطأ والصواب — أى يفقد القدرة على نقد سلوكه فقدانا تاما .